صلاة يسوع في جتسيماني (مر ١٤: ٣٢-٤٢) وربطها بخبر الصلب وبعبارة " إلهي إلهي لماذا تركتني؟ " (مر ١٥: ٣٣-٤١)

الأب ريمون الهاشم
دكتور في التاريخ

المقدّمة

إنّ الموضوع الذي سنقوم بالغوص فيه يعالج الرابط بين صلاة يسوع في جتسيماني (مر ١٤: ٣٢-٤٢) وبين خبر الصلب، وبالتحديد صرخة يسوع الأخيرة: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟" (مر١٥: ٣٣-٤١). بالواقع، إنّ الآراء حول الموضوع لكثيرة وهي معروفة ولكنها لا تقفله بل تبقيه مطروحًا على طاولة البحث، لذلك سأحاول وبقدر الإمكان التوسّع به من خلال هذه المقارنة محاولاً طرحه من زاوية جديدة قد تساعد على تطوير أفكار اللاهوت الكتابي اليوم.

أمّا بالنسبة إلى الطريقة الّتي اعتمدناها في بحثنا فهي التالية: أوّلاً سنقرأ النصوص كما وصلتنا اليوم؛ ثانيًا لن نكتفي بإنجيل مرقس في شروحاتنا وفي مقارناتنا بل سنتطرّق إلى باقي الأناجيل والعهد القديم من أجل رؤية أوضح في بعض الموضوعات؛ ثالثًا سنحاول قراءة النصوص بحسب الطريقة البلاغيّة من أجل تسهيل الشرح.

سنبدأ أوّلاً بتحديد النص، ومن ثمّ سنقسّمه، لنعود بعدها ونضعه في إطاره الأدبي، لنقوم بشرحه ولنتوسع في النهاية في توضيح صلة الوصل بين صلاة يسوع في جتسيماني وصرخته على الصليب.

١- تحديد النص (مر ١٤: ٣٢-٤٢)

يشكّل مر ١٤: ٣٢-٤٢ وحدة أدبية بموضوعه لأنّه يتحدّث عن وصول يسوع وتلاميذه إلى جتسيماني حيث قام هو بصلاته وطلب منهم السهر ولكنهم خذلوه بعدم مقدرتهم على تنفيذ طلبه. أمّا النص الذي قبله فهو يتضمّن حوارًا تنبأ فيه يسوع عن نكران بطرس له (١٤: ٢٧-٣١) بحيث أنّ هذا الحوار جرى بعد أن خرجوا إلى جبل الزيتون (آ٢٦). أما النص الذي يلي خبر صلاة يسوع في جتسيماني (١٤: ٤٣-٥١) فهو يتكلّم عن موضوع مختلف تمامًا عن وصول يهوذا مع جَمعَة تحمل السيوف والعصيّ من قِبل رؤساء الكهنة ومعلميّ الشريعة بهدف اعتقال يسوع الذي كان قد أنهى صلاته وقال للتلاميذ: "قوموا ننصرف" (آ٤٢).

٢- تقسيم النص (مر ١٤: ٣٢-٤٢)

يشكّل النص وحدة متوازية ومحورية في الوقت نفسه. تتوازى الآية ٣٢ التي تتحدّث عن وصولهم إلى جتسيماني مع الآيات ٤٠-٤٢ التي تتحدّث عن وقت الرحيل عن المكان بسبب اقتراب الذي يسلمه، أوّلاً، بسبب تكرار أفعال متضادة مثل جاؤوا (آ٣٢أ)، وننصرف (آ٤٢) أو أقعدوا (آ٣٢ب) وقوموا (آ٤٢)؛ وثانيًا، لأنّ حديث يسوع موجّه إلى التلاميذ بشكل عام في كلٍ من المقطعَين، وليس محدّدًا كما في الآيات ٣٧-٣٨ و٣٣، التي تتوازى في ما بينها بسبب ذلك، إذ أنّه عندما كان يعود من المكان الذي كان يصلّي فيه كان يتفقّدهم، ويذكر بطرس فقط بالرغم من وجود الآخرين. وتتوازى الآية ٣٥ مع الآية ٣٩ بسبب تكرار الفعل ابتعد لأنّه كان يبتعد عن التلاميذ كلّما أراد الصلاة. أمّا الآية ٣٦ فتبقى منفردة لتشكّل محور النص لأنّها الآية الوحيدة التي تتحدّث عن مضمون الصلاة التي تلاها يسوع أمام أبيه. بذلك يصبح النص موزّعًا على الشكل التالي :

أ-٣٢ وجاؤُوا إلى مكانٍ اَسمُهُ جتْسِيماني، فقالَ لِتلاميذِهِ:

"اقعُدوا هُنا، بَينَما أنا أُصَلّي".

ب-٣٣وأخذَ مَعهُ بُطرُسَ ويَعقوبَ ويوحنَّا، وبَدأ يشعُرُ الرَّهبَةِ

والكآبَةِ. فقالَ لهُم: "نَفسي حَزينةٌ حتّى الموتِ.

إنتَظِروا هُنا واَسهَروا!"

ج-٣٥ واَبتَعدَ قليلاً ووقَعَ إلى الأرضِ يُصلّي حتّى

تَعبُرَ عَنهُ ساعَةُ الألَمِ، إنْ كانَ مُمكِنًا.

د-٣٦ فقالَ: "أبي، يا أبي! أنتَ قادِرٌ

على كُلِّ شيءٍ، فأبْعِدْ عَنّي هذِهِ الكأسَ. ولكِنْ

لا كما أنا أُريدُ، بَلْ كما أنتَ تُريدُ".

ب١-٣٧ ورَجَعَ فوَجدَهُم نِيامًا فقالَ لِبُطرُسَ: "أنائمٌ أنتَ يا

سِمْعانُ؟ أما قَدِرتَ أنْ تَسهَرَ ساعةً واحدةً؟

٣٨ إسهَروا وصَلُّوا، لِئَلاَّ تقَعوا في التَّجربَةِ. الرُّوحُ راغبةٌ ولكِنَّ

الجسَدَ ضَعيفٌ".

ج-٣٩ واَبتَعدَ ثانيةً وصَلّى، فرَدَّدَ الكلامَ ذاتَهُ.

أ١-٤٠ ورَجَعَ أيضًا فوجَدَهُم نِيامًا، لأنَّ النُّعاسَ أثقَلَ جُفونَهُم وحاروا بِماذا

يُجيبونَهُ. ٤١ ورجَعَ في المرَّةِ الثَّالثةِ وقالَ لهُم: "أنيامٌ بَعدُ ومُستريحونَ؟ يكفي!

جاءَتِ السّاعةُ. ها هوَ ابن الانسان يُسلَّمُ إلى أيدي الخاطِئينَ. ٤٢ قوموا نَنْصرِف!

اَقترَبَ الذي يُسَلِّمُني!".

٣- الإطار الأدبي للنص

ينتمي مر ١٤: ٣٢-٤٢ إلى خبر يروي فيه الإنجيلي مجرى الأحداث التي أدّت بالمسيح إلى الصلب والموت (مر ١٤-١٥). سنحاول ولو باختصار رؤية هذا الخبر ضمن لوحة قد تساعدنا على وضع نص صلاة يسوع في جتسيماني ضمن إطاره، ورؤية المرحلة التي يشغلها نسبة إلى باقي المراحل.

بالواقع تترابط الآيات ١٤: ١-٢ بالآيات ١٥: ٦-٤٧ بوجود شيء مشترك في ما بينها، ألا وهو بحث رؤساء الكهنة ومعلّمي الشريعة في كيفية قتل يسوع من دون حدوث اضطرابات في الشعب (١٤: ١-٢)، ومن ثم تطبيق حيلهم لجلبه أمام الحاكم بيلاطس المخوّل الوحيد في إصدار حكم الموت عليه (١٥: ١-١٥). والأسباب الأساسية التي دفعت بيلاطس إلى إصدار حكمه هما اثنان: الهيجان الذي سبّبه رؤساء اليهود في الجمع الحاضر أي الشعب، وتحفيزهم لاختيار يسوع مكان براباس ليُصلب (آ ١٠). فرمى بيلاطس بذلك المسؤولية على أكتافهم وأكتاف الشعب الذي يتبعهم إذ أنّه كان عالمًا بحسدهم من يسوع وبالمخاطر التي قد يتعرّض لها حكمه إذا لم يسلّم بما كانوا يرومون إليه. فسلّم يسوع إلى الجلد والسخرية (آ١٦-٢٠)، ومن ثم إلى الصلب حيث قال يسوع كلمته الأخيرة صارخًا: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟" (آ٢١-٤١)، والتي سنعلّق عليها لاحقًا في شرحنا، وبعدها سلّم جسده ليوسف الرامي كي يُدفن (آ٤٢-٤٧). ومن الملاحظ في ذلك أنّ جسده المائت سُلّم إلى أحد أعضاء مجلس اليهود البارزين، وكان من الذين ينتظرون ملكوت الله أي من الذين يتعاطفون مع الروح القدس، كما ذكر لوقا في إنجيله عندما تحدّث عن الذين ينتظرون خلاص الرب وخاصة سمعان الشيخ (٢: ٢٥)، وحنّة (آ٣٨). وبذلك فإنّ رؤساء اليهود الذين تمّموا خططهم وحيلهم لا ينتمون إلى الفئة التي تنتظر خلاص الربّ لأنّهم لا يعيشون بحسب إلهامات الأنبياء والروح بل بحسب تفسيرهم لهذه الإلهامات فقط أي الشريعة.

أمّا الآيات ١٤: ٣-٩ فهي تتوازى مع الآيات ١٥: ١-٥ لعدّة أسباب، وأهمّها توجيه الاتّهامات ضدّ يسوع ليأخذوا عليه مأخذًا يعزله ويودي به إلى الموت من خلال محاولاتهم لاكتشاف الأضاليل في تعاليمه وتصرّفاته. لم يرَ معلّمو الشريعة بيسوع أيّة ردّة فعل تناسب أفكارهم وعاداتهم في موقفه من تصرّف المرأة التي سكبت الطيب على رجليه عند سمعان الأبرص (١٤: ٥-٦)، إذ أنّه اعتبر عملها صالحًا وحكيمًا لأنّه يردّ بالإيجاب على تعاليمه. ألا يستحسّ المرء بعملها هذا توبة واعترافًا بيسوع وبتعاليمه؟ ألا يمكننا اعتبار وليمة سمعان الأبرص عملاً لا اعتراف فيه بيسوع مخلّصًا، بل هو نوع من تشجيع ليسوع المعلّم الشاب الصاعد الذي نظروا إليه انطلاقًا من مساواتهم به، لذلك فردّة فعله تجاه المرأة تتحمّل الانتقاد من قِبلهم؟ أمّا عند بيلاطس فلم يجاوب يسوع على اتّهامات رؤساء الكهنة التي كانت كثيرة (١٥: ٣)، بل اكتفى بالردّ على سؤال بيلاطس: "أأنت ملك اليهود؟"، بقوله: "أنت قلت" (آ٢). ألا يمكننا القول بأنّه أنهى تعاليمه، وما عليهم سوى الاختيار وليس إلقاء التّهم عليه، لأنّه لن يساوم على ما علّمه؟

وفي الآيات ١٤: ١٠-١١ و٦٦-٧٢ نرى الخيانة الصادرة عن اثنين من تلاميذه، الأوّل وهو يهوذا (آ١٠-١١) الذي بقي معه حتى تلك الساعة، ولكنّه على ما يبدو لم يستطع الدخول في سرّ تعاليم معلّمه، والدليل الأكبر على ذلك هو أنّه لم يرَ بيسوع أيّة مرجعيّة يأخذ بتوجيهاتها عندما أراد أخذ القرار بتسليمه. أمّا الثاني فهو بطرس الذي استند على اندفاعه وليس على قوة إيمانه بكلمة معلّمه، فأنكر يسوع ثلاثة مرّات كما تنبّأ له (آ٦٦-٧٢).

وعلى ما يبدو هناك تقارب بين عشاء الفصح الذي قضاه يسوع مع تلاميذه (١٤: ١٢-٢٦)، وبين اللحظة التي وجد فيها يسوع في مجلس اليهود (١٤: ٥٣-٦٥). بالواقع، إنّ المقاربة بين الخبرَين لكثيرة، ولكنّنا سنشير إلى بعض منها. يأتي يسوع على ذكر عبارة "ابن الانسان" بربطه إيّاها بملكه، فخلال العشاء

الفصحي يقول: "لا أشرب بعد الآن من عصير الكرمة، حتى يجيءَ يومٌ فيه أشربُه جديدًا في ملكوت الله" (آ٢٥). وفي آ٦٢ يقول: "أنا هو، وسترون ابن الانسان جالسًا عن يمين الله القدير، وآتيًا مع سحب السماء". وفي العشاء يعلن يسوع عن موت ابن الانسان، ولكنّه يشير إلى الذي أسلمه بقوله: "ولكن الويل لمن يسلّم ابن الانسان" (آ٢١). وأمّا في المجلس اليهودي فيحاكَم ابن الانسان بالموت بعد أن استعمل يسوع هذه العبارة، أي أن الدينونة، بموقفهم الرافض، ستطال كلّ من رفض الاعتراف بكلامه وبرسالته، وهما الذي أسلمه والذي حكم عليه بالموت.

أمّا الملفت للنظر فهو طريقة العبادة التي تمّت أثناء العشاء مع التلاميذ والتي تشير إلى الذبيحة الإلهية (آ٢٢–٢٤)، وهي تقوم على تحويل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح، ويقوم بممارستها فقط الذين آمنوا به وبكلامه. أمّا في المجلس اليهودي فيعيد الشهود كلامه المتعلّق بالهيكل: "نحن سمعناه يقول: سأهدِمُ الهيكل المصنوع بالأيدي، وأبني في ثلاثة أيّام هيكلاً آخر غير مصنوع بالأيدي". (آ٥٨). فماذا يعني بالهيكل، أليس العبادة وحضور الله الفعلي في شعبه من خلال كلمته وعمله؟ والهيكل الجديد الذي أراده المسيح وهو ليس من صنع الأيدي فهو التحويل الذي يتمّ على إيمان كلّ من عاش كلمته وآمن بها، لأنّه بالإيمان فقط يتدخّل الروح ليصنع هيكلاً جديدًا اسمه جسد ودم المسيح الحاضر بكلمته وبفعله. أمّا الهيكل الذي كان من صنع الأيدي هو تابوت العهد الذي جسّد فعّالية حضور الله الدائم بمرافقته لشعبه في أسفاره (عد ١٠: ٣٣) وفي حروبه ضدّ أعدائه (خر ١٥: ٣). ولكنّ فعّالية هذا الحضور كانت مرتبطة بعيشهم لكلمة الربّ المكتوبة على حجر والموجودة في التابوت (تث ١٠: ١–٥). وعندما قال لهم "أهدموا هذا الهيكل"، حيث ثبت تابوت العهد واختفى في ما بعد، كان يقول لهم حوّلوا إيمانكم صوبي أنا، وأنا أعدكم بأنّ القوّة التي كانت تخرج من الهيكل الذي صُنع بالأيدي سوف تتضاعف. أمّا عندما قال:

"وأنا أقيمه في ثلاثة أيام"، فإنه استعان بالرقم ثلاثة كرمز يفهمه اليهود ويتساءلون حوله عندما يقوم هو في اليوم الثالث بعد موته ليتذكروا ما عناه عندما تكلّم عن هدم الهيكل. أمّا في المجلس فقد عبّروا عن رفضهم لهذه التعاليم باعتبارها مضلّلة وتناقض شريعتهم.

وتتوازى الآيات ٢٧-٣١ التي يقول فيها: "سأضرب الراعي، فتتبدّد الخراف، ولكن بعد قيامتي أسبقكم إلى الجليل"، ومن ثَمّ يتنبأ عن نكران بطرس له، مع الآيات ٤٣-٥٢ حيث يتمّ اعتقال يسوع ويُضرب خادم رئيس الكهنة (آ٤٧) ويهرب التلاميذ كما تنبأ. ولكنّ يسوع يتساءل أثناء اعتقاله عن كيفية تعاملهم معه هو الذي أتى وعلّم في مجامعهم. لقد أنكروا عليه هذه التعاليم واعتقلوه كلص.

أمّا النص الأخير (١٤: ٣٢-٤٢)، فهو يشكّل المحور الأساسي لخبر الآلام هذا، ويتضمّن لقاء يسوع مع التلاميذ في جتسيماني من أجل الصلاة، ويشكّل نقطة التحوّل للأحداث المؤلمة التي تعرّض لها يسوع إذ أنّه أعلن خياره أمام أبيه بتتميمه مشيئته السماوية والدخول في خضمّ الرفض اليهودي الذي سيوصله إلى الموت.

أمّا خبر الآلام الذي يشكّل وحدة أدبيّة متكاملة بموضوعه فهو يتوزّع على الشكل التالي:

أ- (١٤: ١-٢) رؤساء الكهنة ومعلّمو الشريعة يخطّطون لقتل يسوع بالحيلة.

ب- (آ ٣-٩) اعتراف المرأة بيسوع \ معلّمو الشريعة ينتقدون يسوع على موقفه الإيجابي من عمل المرأة \ عدم اعترافهم به مخلّصًا.

ج- (آ ١٠-١١) خيانة يهوذا أحد تلاميذ يسوع.

د- (آ ١٢-٢٦) عشاء الفصح، عبادة جديدة لهيكل ليس من صنع الأيدي \ دينونة الذي أسلمه.

هـ- (آ ٢٧-٣١) يسوع يتنبأ بضرب الراعي، وبقيامته، وبنكران بطرس له.

و- (آ ٣٢-٤٢) يسوع يأخذ موقفًا إيجابيًا إرادة أبيه، ويختار الخضوع للموقف اليهودي الحرّ.

هـ١- (آ ٤٣-٥٢) اعتقال يسوع وضرب الخادم بالسيف \ يسوع يرفض الهرب خوفًا من أن يؤثّر على حرّية اليهود بالتزامهم أو بعدم التزامهم بكلمته.

د١- (آ ٥٣-٦٥) يسوع في المجلس اليهودي يذكّره شهود الزور بكلمته التي يعلن فيها عن هدم الهيكل المصنوع من الأيدي ليصنع هو هيكلاً جديدًا، أي عبادة جديدة من صنع الله \دينونة قاتليه.

ج١- (آ ٦٦-٧٢) خيانة بطرس أحد تلاميذ يسوع.

ب١-(١٥: ١-٥) يسوع عند بيلاطس يتلقّى التهم من قبل رؤساء اليهود على كلامه، أي أنّهم ينتقدونه على كلّ تعاليمه.

أ١- (آ ٦-٤٧) الحكم على يسوع بالموت \ تأثير الرؤساء على موقف الجمع في اختيارهم لصلب يسوع \ موت يسوع ودفنه \ تمّت خطط رؤساء الكهنة ومعلّمي الشريعة.

٤- شرح النص (مر ١٤: ٣٢-٤٢)

١.٤- الوصول إلى جتسيماني ودعوة التلاميذ إلى الصلاة

دعا يسوع التلاميذ إلى الصلاة بعد الوصول إلى جتسيماني (أي معصرة

الزيتون)، وهو مكان قرب جبل الزيتون مذكور في لو ٢٢:٣٩ ومت ٢٦: ٣٦، ويسمّيه يوحنا "البستان" (١٨: ١). لم يطلب يسوع من التلاميذ بدايةً الصّلاة، بل أن يقعدوا (آ ٣٢ ب) ليذهب هو وحده إلى الصّلاة. بينما في آ ١-٤٠ فعاد مرّتين ووجدهم نيامًا بسبب النّعاس. وبسبب عقدة الذنب وعدم الشعور بالمسؤوليّة وعدم مقدرتهم على تنفيذ توجيهاته، تلبّكوا أمام السؤال الذي وجّهه إليهم عندما قال: "أنيامٌ بعد ومستريحون؟". لقد شعروا بمطالبة واضحة من قِبلِهِ، وبنفس الوقت نتلمّس فيهم نوعًا من عدم إدراك لكلمة المسيح ولمفهوم الصلاة ولأهدافها.

وأعلن المسيح في آ ٤١ب عن مجيء الساعة التي توحي بقرب أجله وبآلامه؛ وأشار أيضًا إلى اقتراب الخاطئين مع الذي سوف يُسلمه إليهم. فالخاطئون هم ممثّلو رؤوساء الكهنة ومعلّمو الشريعة الذين رفضوا تعاليمه وأرادوا إسكاتَه. وما إعلام التلاميذ باقترابهم إلاّ لأنّه على ما يبدو أخذ قراره بالرضوخ للواقع. وهذا النوع من الرضوخ هو موقف المنتصر الذي سنشرحه لاحقًا، والذي أراد المسيح فيه دعوة الناس إلى التوبة وليس إلى الانبهار.

٤.٢- يسوع يختار ثلاثة تلاميذ

بالواقع جرت العادة عند يسوع، في أحداثٍ أخرى، أن يختار ثلاثة تلاميذ معًا، وهم بطرس ويعقوب ويوحنّا (آ٣٣)، كما حصل عندما أدخلهم معه لشفاء حماة بطرس (١: ٢٩-٣٠)، وعندما رافقوه إلى الجبل وشاهدوا تجلّيه أمامهم (مر ٩: ٢-٨). يردُ تجلّي يسوع على الجبل في الأناجيل الإزائيّة بعد اعتراف بطرس بالمسيح في قيصريّة فيليبّس، وبعد إنباء يسوع الأوّل بآلامه. فالرّباط متينٌ بين التجلّي وبين اعتراف بطرس، كما يردُ في **المحيط الجامع** للأب بولس الفغالي، موضوع "تجلّي" (ص ٣٢٣، العامود الأوّل). وخلال التجلّي سمع هؤلاء الصّوت الصّاعد من السّحابة والذي يقول: "هذا هو ابني الحبيب، فله اسمعوا"

(٩: ٢). فالتجلّي إذًا هو حدث، إن تمّ فقد تمّ أمام تلاميذٍ آمنوا سابقًا بالمسيح، لذلك فهو ليس بترهيب إلهي هدفه التخويف وإلزام الحاضرين على الإيمان بيسوع وبكلامه، بل هو تثبيت للإيمان وشهادة من السماء. وبما أنّ موسى وإيليّا لم يستطيعًا عيش كلام الآب بالكامل، فالآب حلّ بهما بطريقة جزئية، لذلك تبقى بشارتهما ناقصة وكلامهما لا يدينُ السامع الذي يرفض هذا الكلام. أمّا في المسيح، فالآب تجلّى فيه وحلَّ بملئهِ لأنّه عاشَ تعاليم أبيهِ بكاملها؛ لذلك فمن سمع كلامَه نال الحياةَ الأبديّة، ومن رفضَ كلامَه دينَ وقادَ نفسهُ إلى الهلاك.

والحزن الذي توّلد عند يسوع لم يصدر على ما يبدو عن خوفٍ من الوضع الصعب الذي سوف يمرّ به، بل عن علمه المسبق بالرفض الذي صدر عن الذين سمعوه. فهو ما زال حتّى هذه الساعة يطلق على نفسه عبارة "ابن الانسان" (مر ١٤: ٤١ب)، وهذا ما يوحي بدينونة كل من يرفض كلامه.

أمّا كيفيّة الصلاة التي أوحى بها يسوع لتلاميذه فهي أنّه كشف لهم عن نيّةٍ مضمونها ما يلي: "أن لا يقعوا في تجربة" (آ٣٨)، ليرفعوها بصلواتهم طالبين معونة الآب، كي يردّ بالايجاب عليهم ويجنّبهم الوقوع فيها. ما هي هذه التجربة إذًا؟ أليست الانصياع للضغوطات، كصلب المسيح وموته، والتخلّي عن كل ما آمنوا به من تعاليم نَقَلها إليهم من عند أبيه؟ إنّ مسؤولية بطرس ويعقوب ويوحنا لَكبيرة لأنّهم سمعوا سابقًا توجيهًا وشهادة من الآب يؤكّد فيهما على حقيقة ما علّمهم إيّاه يسوع وعاشه أمامهم، لذلك ينبغي ألاّ يتأثروا مما سيحدث.

وعندما يستعمل المسيح عبارة "الروح راغبة ولكن الجسد ضعيف"، فهو يقصد بها رغبة الروح في الخلاص، أي بعيش مشيئة الآب والإيمان بها؛ أمّا الجسد الضعيف فهو الفكر البشري الذي يصعب عليه التخلي عن عاداته ومبادئه وتقاليده، كما حدث مع كثيرٍ من رؤساء اليهود ومعلّمي الشريعة وأتباعهم. إذًا التجربة هي أن يتبنّوا قناعات الذين قرّروا صلب لسانه وتعاليمه.

٣.٤- صلاة يسوع في جتسيماني وربطها بخبر الصلب وبعبارة "إلهي إلهي لماذا تركتني؟"

أ- قبل الصلب

تقسم الصلاة التي رفعها يسوع إلى أبيه السماوي (آ٣٦) الى قسمين: الأوّل وفيه اعتراف المسيح بقدرة الآب على فعل أيّ شيء، لذلك طلب منه إبعاد هذه الكأس إن أمكن، أي تجنيبه هذه الآلام (آ٣٦أ)؛ والثاني يعود فيه يسوع عن طلبه قائلاً: "ولكن لا كما أنا أريد، بل كما أنتَ تريد" (آ٣٦ب). لم يُصِرّ المسيح على ما يبدو على عبارة "أبعد عنّي هذه الكأس"، لأنّه انتقل مباشرةً الى عبارة "ولكن لا كما أنا أريد، بل كما أنتَ تريد". ما هي هذه الإرادة الأبويّة؟ هل يعقل أن تُفسَّر نيّة الآب بأنّه يريد صلب الابن ليخلّص العالم؟ إذا كان الردّ إيجابيًّا، فالاستنتاج واضح وخطر في نفس الوقت، لأنّه بذلك يمكننا القول بأنّ الآب ائتمر على الابن مع رؤساء الكهنة ومعلّمي الشريعة ليتمّ صلبه وقتله ويتم الخلاص بالقتل بحسب مفهوم الكثيرين. وبذلك يكون هؤلاء اليهود الثائرون على الابن قد ساهموا في عمل الآب الخلاصي، وهذا غير معقول.

أمّا إذا عدنا إلى حدث سابق كان قد ذكره فقط متّى٢، وفيه أن المجوس على أثر اكتشافهم للنجم (آ٢)، علم الملك هيرودس بولادة الملك، فاضطرب وبدأ يفتّش عن المولود الجديد بواسطة رؤساء الكهنة ومعلّمي الشعب والمجوس أيضًا (آ٣-٨). وكان الإنجيلي متى قد ذكر سابقًا (١: ١-١٧) نسب يسوع ليركّز على أنّ الذين ذُكِرت أسماؤهم هم من الذين أمالوا الله الآب لهم بإيمانهم بوعده بالخلاص، وشهدوا لهذا الإيمان بانتظارهم لمجيء المخلّص. وعندما أتى المخلّص أتى تنفيذًا لتصميم الآب وردًّا على انتظارهم، لأنّهم بحرّيتهم اختاروا هذا الإيمان، والآب دخل حياتهم لا لإلزامهم به، بل تجاوبًا مع طلباتهم. والمسيح المخلّص ينتمي إلى هذا النوع من النسل المؤمن. وهناك

كثيرون ممّن ينتمون إلى هذا النسل وما زالوا ينتظرون هذا المجيء. وكنّا قد أوردنا هذا الانتظار سابقًا في مقطع الإطار الأدبي مع سمعان الشيخ والنبيّة حنّة التي حضرت في تلك الساعة، أي بعد تقديم يسوع على يد سمعان، وحَمَدت الله وتحدّثت عن الطفل، **فقط مع كل من كان ينتظر من الله أن يفدي أورشليم** (لو ٢:٣٨).

وعندما وقع الطفل يسوع في خطر، على أثر قرار هيرودس الذي غضب جدًّا وأمر بقتل كل طفل في بيت لحم وجوارها من ابن سنتين فما دون (متّى ٢:١٦)، تدخّل الآب في حلم يوسف ليجنّب ابنه هذا الخطر قائلاً: "قم خذ الطفل وأمّه واهرب إلى مصر" (متّى ٢:١٣)، وهذا ما فعله يوسف إذ أنّه أقام في مصر إلى أن مات هيرودس (آ ١٤). إنّ الآب يحترم حرّية البشر التي زرعها فيهم منذ البداية، لذلك لم يتدخّل ليمنع هيرودس من قتل ابنه بترحيله إلى مصر، بل ليردّ على البشر الذين ينتظرون مجيء المخلّص بالصوم والصلاة والتضرعات. إذًا فالآب لم يتدخّل ليجنّب ابنه الموت بمبادرة منه، بل لأنّ هناك من يطالب بالمجيء.

أمّا بالنسبة إلى يسوع الذي عاش بين البشر، فإنّه احترم تصرّفات أبيه ولم يمس حريّة البشر بأذى، لأنّه لم يُلزم أحدًا به كما فعل النبي إيليا الذي قام بأعاجيب كثيرة أرهَب بها قلوب اليهود والوثنيين معًا. ونذكر من هذه الأعاجيب، على سبيل المثال، أعجوبة النار التي سقطت من السماء وأحرقت الذبيحة (١مل ١٧: ١٨-٤٠). بالواقع إنّ هذه الأعجوبة لم تتمّ على إيمان أحد، بينما المسيح عندما أقام لعازر من الموت بنى أعجوبته على إيمان مرتا شقيقة لعازر (يو ١١)، وإن قام بأعجوبة أخرى فإنّه كان ينتظر دائمًا من المعني التعبير عن مطلبه والشهادة لإيمانه، كما حدث مع الأبرص (مر ١: ٤٠-٤٢)، ومع الأعميَين (متّى ٩: ٢٧-٣٠)، وإن تمّم أعجوبة بمبادرة منه ومن دون طلب المعني فإنّه يكون عالمًا باستعداد هذا الأخير لاستقباله عمل الرحمة، كما حدث مع المرأة المحدودبة الظهر في الهيكل (لو١٣: ١٠-١٧)، ومع الأعمى (يو٩).

بالإضافة إلى ذلك، فالمسيح لم يأتِ ليتفضّى لشرّ البشر لأنّه لم يواجه أحدًا، بل كان يُعلّم ويلقي كلمته على مسامعهم. فالذين أصغوا إليه، وأرادوا تبنّي ما يقوله، كان يتابعهم، وأمّا الذين رفضوا الإصغاء إليه، فإنّه كان يحيد وجهه عنهم دون أيّة محاولة لمجادلتهم أو لمواجهتهم، وهذا ما أراد متّى التعبير عنه عندما نصّ نبوءة أشعيا الذي قال: "ها هو فتاي الذي اخترتُهُ... سأفيض روحي عليه، فيعلن للشعوب إرادتي. لا يخاصم ولا يصيح، وفي الشوارع لا يسمعُ أحدٌ صوتَهُ. قصبة مرضوضة لا يكسِر، وشعلة ذابلة لا يُطفيء. يثابر حتى تنتصر إرادتي، وعلى اسمه رجاء الشعوب" (متّى١٢: ١٨-٢١).

وتابع المسيح عيشه لمبدئه هذا بعدم هربه من وجه الحرس، لماذا؟ أليس الهرب عاملاً قد يساعد على التأثير في نفوس الذين رفضوا الإيمان بتعاليمه؟ فالهرب وعدم المقدرة على القبض على يسوع قد يجعلان منه بطلاً يوجّهه الله في تحرّكاته كما حصل مع داود الملك الذي رآه أعداءه وأحبّاءه بعين المحمي من الله والمنصور منه دائمًا على كلّ من حاول الانقضاض عليه وقتله. فلأنّ داود كان يتمكّن من الهرب وينقذ نفسه، اعترف به شاول ملكًا من بعده، وتوقّف عن ملاحقته (١صم ١٨-٢٤)؛ ولأنّ حياة المسيح مرهونة بالرسالة، فهربه من وجه أعدائه قد يُلزم البشر بالإيمان بكلامه، وهذا ما يؤثّر فعلاً على حرّية كل من أراد التعاطي مع كلامه. والمسيح تابع سياسته السماويّة بعدم نزوله عن الصليب أمامهم كي لا يرهبهم، وبعدم قيامته من بين الأموات بحضورهم كي لا يتأثروا بخيارهم. فالقناعة الحرّة أساسية في اختيار الكلمة التي إن وُجدت على الأرض فهي لكي تُغني النفس وتخلّصها وتُدخلها إلى الملكوت.

ما هي مشيئة الآب إذن؟ أليست منح الإنسان الحريّة في عقله؟ والإنسان، كما سبق ورأينا، هو الذي أمر بالصلب إنطلاقًا من عقله، خاصّةً عندما لم يجد في المسيح شيئًا يلزمه به، فرأى ذاته حرًّا في أخذ القرار. لذلك، فقوله "لا إرادتي بل إرادتكَ"، يعني بها أن يَخضَع هو لهذه الحريّة التي أعطاها الآب للإنسان.

والتّخلي عن إرادته الخاصّة، أتت كما ولو كانت انتصارًا على طبيعته البشريّة التي كانت عالمة بقدرة الآب على إخراجه من هذه المحنة؛ ولكنّه إن أتى، فَلِكَي يحافظ على مسار الآب بطريقة تعاطيه مع البشر؛ فالمسيح والآب واحد، والآب لا يُناقض نفسه، لأنّه توحَّدَ بابنه ليفتح أمام البشر باب الخيار الحرّ والكامل، ولأنَّ الإنسان بخياره، إمّا يفتح باب الحياة الأبديّة عليه، وإمّا يغلقه إلى الأبد.

ب- الصلب وصرخة يسوع وموته

والسؤال المطروح هو حول علاقة مر ١٤: ٣٢-٤٢ بخبر الصلب (مر ١٥: ٣٣-٤١)، وبصرخة يسوع الأخيرة على الصليب: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟".

أمّا قراءتنا لخبر موت يسوع على الصليب: فقد كانت على الشكل التالي:

يتضمّن النص صرختين ليسوع، الأولى في آ٣٤ يقول فيها: "إلهي إلهي، لماذا تركتني؟"، والثانية في آ٣٧ حيث فارق الحياة مباشرةً من بعد أن أطلقها أيضًا بصوتٍ عالٍ وفيها لا يقول شيئًا.

أمّا الآيتان ٣٥-٣٦ فتتحدّثان عن موقف بعض الحاضرين من الصرخة الأولى، إذ عبّر عنه واحدٌ منهم بالإسفنجة التي بلّلها بالخلّ ورفعها إلى المسيح ليشرب منها، وهذا الموقف موقف سخرية ورفض وتحدٍّ في آنٍ معًا. أمّا الآية ٣٩ ففيها أيضًا موقف آخر من المسيح بعد صرخته الثانية، إذ أعلن قائد الحرس بنفسه عن اعترافه قائلاً: "بالحقيقة كان هذا الرجل ابن الله". أمّا الآية ٣٣ التي تتحدّث عن المكان والوقت والحالة التي كان فيها، فتتوازى مع الآيتَين الأخيرتَين من النص (٤٠-٤١) اللتين تأتيان على ذكر النسوة اللواتي تبعن يسوع وخدمنه في رسالته، وهنّ الآن يشهدن على موته بوجودهم في المكان الذي يُصلب فيه، وسيشهدن على قيامته في ما بعد.

أمّا نص موت يسوع (مر ١٥: ٣٣-٤١) فهو موزّع على الشكل التالي:

أ- ٣٣ وعِندَ الظُّهرِ، خَيَّمَ الظَّلامُ على الأرضِ كُلِّها حتّى السّاعةِ الثّالِثةِ.

ب- ٣٤ وفي السّاعةِ الثّالِثةِ، صرَخَ يَسوعُ بِصوتٍ عَظيمٍ: "إيلوهي، إيلوهي، لما شَبَقْتاني"، أي "إلهي، إلهي، لماذا تَركتَني؟"

ج-٣٥ فسَمِعَ بَعضُ الحاضِرينَ، فقالوا: "ها هوَ يُنادي إيليّا!" ٣٦ وأسرَعَ واحدٌ مِنهُم إلى إسْفِنجَةٍ وبَلَّلَها بالخَلِّ ووضَعَها على طَرَفِ قَصَبَةٍ، ورَفَعَها إليهِ لِيشرَبَ وهوَ يَقولُ: "إنتظِروا لِنرى هَلْ يَجيءُ إيليّا لِيُنزِلَهُ".

ب١- ٣٧ وصرَخَ يَسوعُ صَرخَةً عاليةً وأسلَمَ الرُّوحَ، ٣٨ فانشَقَّ حِجابُ الهَيكَلِ شَطْرَينِ، مِنْ أعلى إلى أسفلُ.

ج١-٣٩ وكانَ قائدُ الحرَسِ واقفًا تُجاهَ الصَّليبِ، فلمّا رأى كيفَ أسلَمَ يَسوعُ الرّوحَ، قالَ: "بالحقيقةِ كانَ هذا الرَّجُلُ ابن اللهِ".

أ١- ٤٠ وكانَت هُناكَ جَماعةٌ مِنَ النِّساءِ يَنْظُرنَ عَنْ بُعدٍ، فيهِنَّ مَريَمُ المَجدَليَّةُ، ومَريَمُ أم يَعقوبَ الصَّغيرِ، ويوسي، وسالومةُ، ٤١ وهُنَّ اللّواتي تَبِعنَ يَسوعَ وخدَمْنَهُ عِندَما كانَ في الجَليلِ، وغَيرُهُنَّ كَثيراتٌ صَعِدْنَ معَهُ إلى أُورُشليمَ.

نستنتج مما ورد أن حريّة الإنسان بالإيمان أو بعدم الإيمان بيسوع مسيحًا كانت واضحة في النص؛ هناك من آمنوا كقائد الحرس (آ٣٩)، وهناك من رفضوا طالبين آية ليصدّقوه (آ٣٥-٣٦). أمّا موقف المسيح من الذين يطلبون آية دون الرجوع إلى الماضي أو دون الإصغاء إلى التعليم، فكان واضحًا، وقد أعلن عنه عندما قال لهم: "جيل شرّير يطلب آية"، وذكّرهم بضرورة العودة إلى ماضيهم الذي شهد تدخّلاً إلهيًا مباشر في حياة يونان، وكيف أنّ أهل نينوى صدّقوه لأنّهم

رأوا كيف أنّ الله حفظه من الموت لمدّة ثلاثة أيام في بطن الحوت؛ وذكّرهم أيضًا بـ"ملكة التيمن التي أتت من بعيد لتسمع كلمة سليمان وها هنا أعظم من سليمان"؛ وأضاف أنّ دينونتهم لن تكون على ما سمعوه منه ولم يؤمنوا به، بل على ما مرّ في ماضيهم من تدخّلات إلهيّة ولم يتأثروا بها (لو ١١: ٢٩-٣٢؛ مر ٨: ١٢).

أمّا صرخة يسوع "إلهي إلهي لماذا تركتني؟"، فلن أربطها بنص المزمور ٢١ كما اعتاد شرّاح الكتاب المقدّس أن يفعلوا، ولكنني سأحاول ولو بشكل سريع النظر إليها مباشرة في محاولة لقراءتها بالطريقة المناسبة.

إنّ المسيح قبل الصلب قال: "لتكن مشيئتك" (مر ١٤:٣٦)، دون أن يُصِرّ على عبارة: "أبعد عنّي هذه الكأس"، لأنّه، كما سبق وقلنا، استطاع بصلاته أن يطوّع الإرادة البشريّة للإرادة الإلهيّة الكامنة فيه، والتي لا ينبغي أن تعاكس بطبيعتها مشيئة الآب السماويّة. وكنّا قد أشرنا إلى مضمون هذه المشيئة التي تدعو المسيح إلى تخضيع ذاته لحريّة الإنسان المدعو إلى التوبة بكامل إرادته وليس بالترهيب والانبهار. لذلك، فعبارة "لماذا تركتني" تعبّر عن مضمون قد نقرأه بين السطور وهو يعني ما يلي: لماذا تركتني لِحريّتهم؟

إذا أحصينا الذين يحبّون هذه العبارة فهم كُثُر، لأنّهم يَوَدّون دائمًا قراءتها انطلاقًا من نفسيّتهم المرهقة والثائرة على الله. بالواقع، عندما يسمع الإنسان عبارة قيلت على لسان إلهه يسعى دائمًا لمقارنتها مع مبادئه ونفسيّته، فإذا استنتج بأنّ كلمة الله هذه تطالبه وتَحثُّه على الخروج من القديم الذي فيه، يَسكُت إن رَفَضَها، ويتأمّلها إن قَبِلَها لِتُصبح من كيانه. أمّا إذا نَظرَ إليها بسطحيّة ورآها تُوافِق حالته اليائسة التي يعيشها وثورته على الله وتَحَدّيه له، فإنّه يقرأها كما ولو كانت مُبرّرًا لِما هو عليه. ففي حالة كهذه قد تصبح عبارة "لما تركتني" نافذة يَعبُر من خلالها ليطالب الله على تقصيره تجاهه وعلى قلّة حكمتِه في توجيهه. لذلك كل نفسيّة على الأرض

قد تَشعُر في قرارة ذاتها أنّها تُحِبُّ أن تسمع عبارة كهذه، لأنّها تريد في غالب الأحيان رفع المسؤوليّة عن أكتافِها ورميها على الخالق، كما ولو كان الإله هو الذي أودى بها إلى حالة سيّئة كهذه، وهذا ما نُسمّيه "المعاتبة".

هل أراد المسيح بعبارة كهذه التعبير عن معاتبته للآب؟ أم هناك نيّة أخرى شاء إظهارها بهذه الطريقة؟

لقد سبق وذكرنا الحالة التي مرَّ بها الطفل الإلهي، وكيف أنّ هيرودس حاول قتله، ولكن، نظرًا لوجود أُناس كانوا بحالة تضرُّع وانتظار لمجيء المخلّص، فقد تجاوبت السماء مع تضرُّعاتهم وجنّبَت الطفل الموت. أمّا في حالة الصلب فالذين انتظروه، فقد فعلوا دون أن يتوقّعوا منه أي تدخُّل في مبادئهم ومعتقداتهم، بل لكي يكون لهم مصدر رحمة في كلّ ما يحتاجونه على الأرض فقط.

ولكنّهم، بالرغم من وجود الرحمة (الشفاءات وتكثير الخبز وغيرها)، فقد رفضوه لأنّه أراد إغناء نفوسهم بتعاليم جديدة لا تُلغي إلهامات الأنبياء، بل تكمّلها لتُصلح التفاسير المستشفّة منها، وتلغي المبادىء المنحرفة التي تُبعِد النفس عن السماء ولا تُغنيها. لذلك فعمليّة الصلب تمّت لصلب لسان المُخلّص ولعدم وجود أناس يتضرّعون إلى الآب السماوي لتجنيبه الصلب. والمسيح بحالة كهذه هو الإله ومصدر الخلاص، ولا يستطيع أن يكون أداة تضرُّع لبشر رفضوه مخلّصًا؛ وبما أنّ المخلّص لا يحتاج إلى خلاص، فطَلب الخلاص والتضرُّع للحصول عليه ينبغي أن يصدر عن البشر؛ لذلك، فبرفضهم هم لا يرفضون بشريًّا بل إلهًا مخلّصًا، أي يرفضون خلاصهم، والخلاص لا يُفرَض فرضًا.

إنّ استسلام الابن للصلب إذًا وُلد بالمسيح عندما عَلِم بقلوبهم وبأحقادهم وبنفورهم، ومنذ تلك اللحظة قال لهم بأنّ ابن الانسان سيُصلَب ويُسلَّم؛ ويمكننا القول إنّه منذ تلك اللحظة بدأ يقول في قرارة نفسه: "لتكن مشيئتك"، لأنّ خلاصهم وهلاكهم في يد حرّيتهم. "لماذا تركتني"، تعني إذًا: لماذا تركتَ لهم حرّيتهم؟ هذا ما استنتجناه من كُلّ ما أوردناه سابقًا.

بعبارته "لماذا تركتني؟" أكّد يسوع على شيئين: الأوّل بأنّه كان شاعرًا فعلاً بالألم، بالرغم من ألوهيّته، وهو يعيشه حقًّا، وهذا أمر واضح لدى الجميع. والثاني ليشير إلى عملهم الشنيع. ولشرح هذه النيّة، فإنّنا بحاجة إلى الرجوع إلى إنجيل لوقا (٢٣: ٣٤) حين يقول المسيح على الصليب: "إغفر لهم يا أبي لأنّهم لا يعرفون ما يعملون". حتّى ولو لم تُذكَر هذه الآية في إنجيل مرقس الذي لا يعطي تفاصيل كثيرة في إنجيله، فإنّنا نرى من خلالها نيّة المسيح واضحة.

قبل أن يلفظ الروح قال: "إغفر لهم"، ولم يقل "إغفر لي"، لتتوضّح الصورة بشكل نهائي، ولكي يشير بأنّه ليس ثائرًا على أبيه؛ فالثائر على الله لا يستطيع طلب الغفران من أجل الآخرين.

إذًا، فالمسيح بعبارته، "لماذا تركتني؟"، لم يكن يتّهم الآب، بل كان يعلن عن ألمه وعذابه، أي عن طبيعته البشريّة. وإذا أردنا التعمّق أكثر في شرحنا الذي يتلخّص بعبارة "لماذا تركتَ لهم حريّتهم؟"، فإنّنا نتسامح مع ذاتنا ونقول بأنّها تعني أيضًا ما يلي: لماذا تركتَ لهم ثورتهم على الله بالصلب والقتل؟ فالعبارة إذًا تعني: لقد رحمتهم وتركتهم يختارون مصيرهم، وأنا انصعت لرحمتك.

الخاتمة

إن خلاصة ما أوردناه يتمحور حول فكرة أساسيّة، ألا وهي احترام الآب لحرّية البشر، وخضوع الابن لهذه الحرّية. أمّا صرخة يسوع على الصليب فهي صرخة تشير إلى طبيعته البشرية، ولا تحمل أيّة ثورة على الآب. والرابط الوحيد بين الصلاة والصرخة هي حرّية البشر التي ينبغي أن يكون لها الدور الأساسي لكي يتحقّق الخلاص في كلّ نفس وفي كلّ طبع وفي كلّ عقل، ويتسنّى للآب والابن أن يأخذا المقام الملائم لهما في الإنسان ليصبحا واحدًا معه.